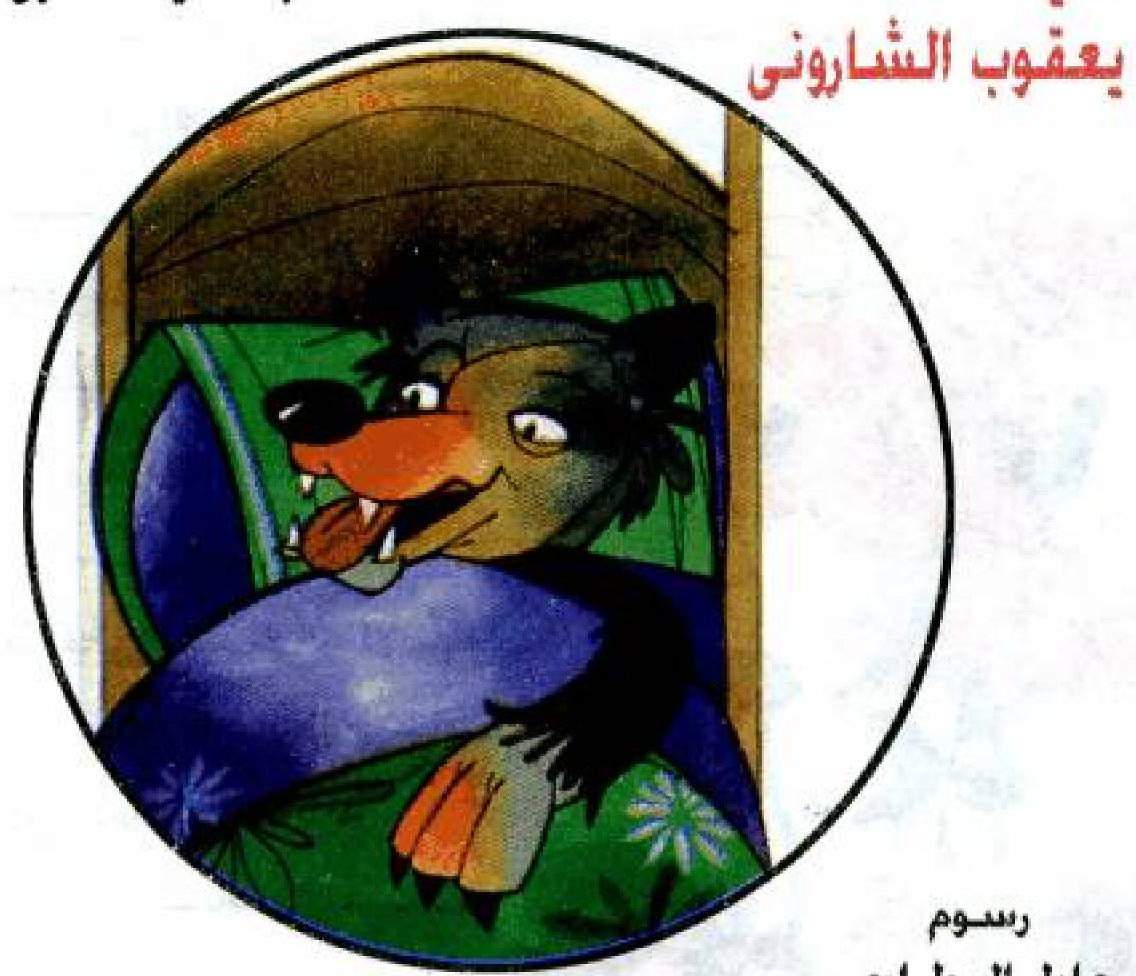
ألف حكاية وحكاية (٨٣)

مصباح أمام كل بيت

وحكايات أخرى

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
عادل البطراوى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى
الفجالة - القاهرة

" مصر " بقطرات من دماء الأطفال

كُنَّا ١٢٠ من الفتياتِ والفتيانِ ، أعمارُنا ما بينَ ١٢ و ١٥ سنةً ، حملَ كلُّ واحدٍ منَّا وردةً ، وقد انصهرَتْ مشاعرُنا ، فأصبحْنا كأننا شخصٌ واحدٌ ، حتى إن كلَّ فردٍ منَّا ضغطَ بطرفِ إبهامِهِ على شوكةٍ من أشواكِ الوردةِ التى يحملُها ، وبقطراتٍ من دمائِنا ، اشتركْنا فى كتابةِ اسمِ " مصر " على الرايةِ التى معَنا ، ورفعْناها عاليًا .

ثم اتجهَتْ مسيرتُنا فى صمتٍ ، لنضعَ ورودَنا مع دموعِنا ، فوقَ المكانِ الذى ارتعشَتْ أحجارُهُ من الألمِ والاستنكارِ ، فى معبدِ حتشبسوت بالديرِ البحرِىِّ بالأقصرِ ، بسببِ دماءِ الأطفالِ والأمهاتِ والعجائزِ التى سالَتْ من ضيوفِ مصرَ الأبرياءِ .

وأضافَتْ " بسنت " ، رئيسةُ اتحادِ طلابِ مدارسِ مصرَ للغاتِ ، قائلةً :



" وبغيرِ اتفاقٍ سابقٍ ، وجَدْنا أنفسَنا نُنشِدُ بصوتٍ واحدٍ : " مصرُ هي أمّي ، نيلها هو دمي ، شمسها في سماري ، شكلها في ملامحي ، حتى لوني قمحي ، لون خيرك يا مصر . "

وكانَ معَنا "فهد" ، الطفلُ الصغيرُ المُلتحِقُ بفصولِ ذوي الاحتياجاتِ الخاصةِ بمدارسنا ، الذي انفعلَ بالموقفِ ، فانطلقَ وربما لأولِ مرةٍ في حياتِهِ ، يهتفُ في حماسٍ : " تحيّا جمهوريةُ مصر العربية " .

وانطلَقْنَا كلُّنا نردِّدُ الهتافَ معه ، ونحن لا نستطيعُ السيطرةَ على دموعِنا .

فشكرًا لمديرةِ مدارسِنا ، فقد هيَّأتْ لنا كلَّ الإمكانياتِ للقيامِ بالزيارةِ والمسيرةِ ، لنعيشَ تلك اللحظاتِ التي لا ننساها ، في حبِّ مصرَ .



مصباح أمام كل بيت

كلما أمرُّ في الشارعِ الذي يوجدُ به منزلُنا ، أحِسُّ بالضيقِ ، بسببِ ما نجدُ فيه من قمامةٍ ، وللظلامِ الذي يعيشُ فيه الشارعُ بعدَ الغروبِ .

وقد حدَّثتُ والدي عن ذلك ، لكنني وجدتُ مشاغلَهُ الكثيرةَ لا تسمحُ له بأن يفعلَ شيئًا .

ولما كانَتْ لي بعضُ الزميلاتِ والصديقاتِ في نفسِ شارعِنا ، فقد اتفقْنا على أن نلتقِيَ في منزلنا ، للوصولِ إلى حلٍّ .

وانتهيْنا إلى أن تُقنِعَ كلُّ واحدةٍ منا أسرتَها وجيرانَها بتدبيرِ مبلغٍ شهريٍّ ، نُكلِّفُ به أحدَ العمالِ ، ليجمعَ القمامةَ من بيوتِنا ، وأن يُعلِّقَ كلُّ منزلٍ مصباحًا كهربائيًّا صغيرًا أمامَ مدخلِهِ .

وقد احتاجَ الأمرُ إلى أسبوعَيْنِ أو ثلاثـةٍ ، حتى أصبحَ الشارعُ مُضيئًا .

كما وجَدْنا عاملَ نظافةٍ يعملُ فى إحدى المصالِحِ الحكوميةِ ، وافقَ علـى أن يجمعَ القمامةَ من البيوتِ فى الصباحِ الباكرِ ، قبلَ الذهابِ إلى عملِهِ ، مرةً كلَّ يومَيْنِ ، علـى أن تدفعَ له كلُّ أسـرةٍ نصفَ جنيهٍ شهريًّا .

وأصبَحْنا من أولِ المستفيدينَ بالإضاءةِ والنظافةِ فى شارعِنا .



سمعْتُ هذه التجربةَ من طالبةٍ بالمرحلةِ الإعداديـةِ ، فى لقاءٍ بمكتبةِ الطفلِ ، بمقرِّ جمعيةِ الرعايةِ المتكاملةِ بأسيوط ، كان موضوعُهُ " تعاونِ الجهودِ الأهليةِ التطوعيةِ ، مع الجهاتِ الحكوميـةِ ، فـى حلِّ مشاكلِ البيئةِ " .

أنا الولد بِلْيَة

اسمى محسن برعى إسماعيل ، عمرى ١٤ سنةً .. أسطى ميكانيكى سياراتٍ .. بدأتُ العملَ فى الورشةِ وعمرى ٩ سنواتٍ .

يوميتى ٥ جنيهاتٍ .. إجازتى يومُ الجمعةِ ، ولا أعرفُ الإجازةَ السنويةَ .

الورشةُ تفتحُ من التاسعةِ صباحًا إلى التاسعةِ مساءً ، وأحيانًا إلى الحاديةَ عشرةَ مساءً .

أُعطى والدتى أربعةَ جنيهاتٍ ، وأحتفظُ بالجنيهِ الباقى وبالبقشيشِ لمصروفى وملابسى ومواصلاتى .

لى أخٌ وثلاثُ أخواتٍ ، كلُّهم أصغرُ منّى . أحيانًا أعطى إخوتى مصروفَهم ، وهم يطلبون مشورتى فى أشياءَ كثيرةٍ .

والدى يعملُ فى ورشةِ سجادٍ يدوىٍّ ، لكن إنتاجَهُ قليلٌ لضعفِ صحتِهِ .

والدتى تهتمُّ بى جدًّا ، وكثيرًا ما تقدِّمُ لى مع والدى أفضلَ ما فى البيتِ من طعامٍ ، وبكمياتٍ أكبرَ مما تقدِّمُهُ لبقيةِ إخوتى ، مع أنهم جميعًا يتعلمونَ فى المدارسِ .



تسـليتى الوحيـــدةُ مشاهدةُ التليفزيـون ، وأحيانًـا اللعــبُ " بالكوتشـينة " مـع إخوتـى . أفضّـلُ النـومَ يـومَ الجمعةِ ، لأننى لا أنامُ وقتًا كافيًا فـى بقيـةِ أيـامِ الأسـبوعِ . لا أدخنُ ولا أعرفُ أيّـةَ مُكيّفـاتٍ أخرى .

أريدُ أن أتعلّمَ القـراءةَ ، لأقـرأ كُتُـبَ إخوتـى التـى تُعجِبُنـى رسومُها . وأتمنَّـى أن ألعبَ كرةَ القدمِ مـع جيرانـى فى الحارةِ ، لكنَّ العائلةَ تحتاجُ إلى يوميتى وتعتمدُ عليها .

إنهم يعتبروننى رجلاً منذُ طفولتى ، ولم يسمحوا لى أبدًا أن ألعبَ مثلَ بقيةِ الأطفالِ ..إنهم يروننى دائمًا " الأسطى بلية !! "

ماذا فعل أحمد مع الأراجوز

فى إحدى المكتباتِ العامةِ ، اختارَ الأطفالُ الصغارُ اسمَ أحمد لبطلِ القصةِ التى تعتمدُ على الرسومِ فقط بغيرِ كلماتٍ ، وهى قصةٌ رسمَها الفنانُ الهولندِيُّ العالمِيُّ " ديك برونا " ، الذى كتبَ ورسمَ أكثرَ من ٨٠ كتابًا للأطفالِ ، ابتداءً من عمرِ سنةٍ واحدةٍ إلى ٧ سنواتٍ ، تمَّتْ ترجمتُها إلى ٣٢ لغةً .



قلْتُ لهم : " مشى أحمدُ في الشارعِ إلى الرَّوْضَةِ .. أحمدُ شاف الأراجوزَ اللعبةَ يقعدُ على الأرضِ وحدَهُ .. احتضنَ أحمدُ الأراجوزَ ، وأخذَهُ ليلعبَ معه في الروضةِ ، ثم رجعا معًا إلى البيتِ . "

وعندما طلبْتُ من الأطفالِ ابتكارَ خاتمةٍ جديدةٍ للحكايةِ ، قالَتْ مروة : " أحمد عملَ أراجوزة بنتًا ، لتلعبَ مع الأراجوزِ الذى وجدَهُ أحمدُ . "

وقالَ عبدُ الرحمنِ : " أحمدُ جمعَ أصحابَهُ في حفلةٍ ، ليتعرَّفوا على الأراجوزِ ، ويكونوا كلُّهم أصحابًا له . "

وقالَتْ إسراء : "أحمدُ كانَتْ عنده لعبةٌ أخرى على شكلِ أراجوز. أعطى أخته واحدة ، واحتفظَ هو بواحدةٍ ، ليلعبَ مع أختِهِ لعبةَ مسرحِ العرائسِ . "



أما ماجدة ، وكانَتْ أكبرَ الأطفالِ الذين استمعوا إلى الحكايةِ فقالَتْ : " أحمد طلبَ من بابا أن يساعدَهُ ليعرفوا مَنْ هو صاحبُ الأراجوزِ ، ليذهبوا إليه ، لإعادةِ اللعبةِ إلى صاحبِها . "

أصدقائى قد تغيروا

فى لقاءٍ مع ٣٠٠ من فتياتٍ وفتيانِ المرحلةِ الثانويةِ ، بمدرسةِ جمال عبد الناصر المشتركةِ بالقاهرةِ ، أرسلَ لى أحدُ الطلبةِ سؤالاً مكتوبًا يقولُ فيه : " ما رأيُكَ فى قضيةِ أخلاقِ الشبابِ هذه الأيامَ ؟



لقد أصبحْتُ أجدُ بعضَ أصدقائى قد تغيّروا كثيرًا . كانَتْ ألفاظُهم مُهذّبةً ، وسلوكُهم سليمًا بوجهٍ عامٍّ . لكنهم الآن لا يتحرَّجونَ من تبادلِ نكاتٍ خارجةٍ وحكاياتٍ غير مُهذّبةٍ ، وقد أصبحْتُ أشعرُ بالحرجِ والضيقِ وأنا معهم . "

قلْتُ للمُتسائلِ : إن بعضَ الشبابِ الصغيرِ ، يتصوَّرُ أنه لكي يُصبحَ الصغيرُ كبيرًا ، عليه أن يستخدمَ ألفاظًا خشنةً أو لغةً غيرَ مُهذَّبةٍ . لكنّ هذا فهمٌ خاطئٌ لواقعِ الحياةِ . فالاحترامُ والتقديرُ يكونان بأن نؤكّدَ لمَنْ حولَنا أننا وصَلْنا إلى مرحلةِ النضجِ ، بقدرتِنا على تحمُّلِ المسئوليةِ ، وبالتفكيرِ المُنظَّمِ ، والسلوكِ الراقي . وعليك أن تجعلَ أصدقاءكَ يفهمون ، بأسلوبٍ مُهذَّبٍ ، أنك لا ترحِّبُ بهذا النوعِ من الأحاديثِ . فمثلاً لا تضحك معهم على ما ترى أنه غيرُ مُناسبٍ من نكاتِهم وأحاديثِهم ، أو حاولْ تحويلَ مجرى الحديثِ إلى موضوعاتٍ لائقةٍ .

وأحيانًا يكونُ من غيرِ السهلِ أن تدافعَ عما ترى أنه الصوابُ . لكن الأكثرَ أهميةً أن تكونَ صادقًا مع نفسِكَ ، ومُخلصًا لما ترى أنه الصوابُ ، أكثرَ من اهتمامِكَ بأن تفوزَ بالقبولِ من زملاءٍ يُصِرُّونَ على ارتكابِ الأخطاءِ .

صورة .. صورة .. وصورة !!

واحدًا بعدَ الآخرِ ، انطلقَ الأطفالُ ينزلقونَ على " الزلاقةِ " فى القاعةِ المُخصَّصةِ للأطفالِ بمطارِ استكهولم . ومن بينِهم طفلةٌ فى الخامسةِ ، تضحكُ فى مرحٍ كلما وصلَتْ إلى الأرضِ ، ثم تُعاوِدُ صعودَ سلمِ اللعبةِ ، لتنزلقَ من جديدٍ بعدَ بقيةِ الأطفالِ .



ووقفَتْ والدتُها تراقبُها فى سعادةٍ ، ثم أخرجَتْ آلةَ تصويرٍ ، وطلبَتْ من بقيةِ الأطفالِ أن يتجمَّعوا حولَ ابنتِها ، والتقطَتْ لهم صورةً . ثم التفتَتْ نحوَ زوجِها وقالَتْ :

" لماذا لا توجَدُ فى كلِّ مطارٍ قاعةٌ مثلُ هذه ، يجدُ فيها كلُّ طفلٍ أطفالاً آخرينَ يُشارِكونَهُ اللعبَ إلى أن يجيءَ ميعادُ طائرتِهِ ؟ "

وبعدَها بقليلٍ ، دخلَتْ سيدةٌ مع ابنِها ، وكانَتْ تتحدَّثُ معَهُ باللغةِ العربيةِ . وما إنْ صعدَ الابنُ إلى " الزلاقةِ " حتى بدأَتْ تصوِّرُهُ بآلةِ فيديو .

لكنَّ طفلةً جاءَتْ ووقفَتْ خلفَ الولدِ ، لتنزلقَ بعدَهُ . هنا توقَّفَتِ الأمُّ عن التصويرِ ، وطلبَتْ من ابنِها إبعادَ الفتاةِ ، وابتعدَتِ البنتُ .

ومرةً ثانيةً ، جاءَ طفلٌ صغيرٌ وجلسَ على حافةِ الزلاقةِ ، فتقدَّمَتِ الأمُّ بنفسِهاهذه المرةَ ، وأبعدَتْهُ .

وأخيرًا استأنفَتِ التقاطَ ما تشاءُ من صورٍ لابنِها وحدَهُ ، بينما وقفَ بقيةُ الأطفالِ يتفرَّجونَ من بعيدٍ ، على الأمِّ التى لا تُريدُ أن يظهرَ فى شريطِ صُوَرِها ، فى قاعةِ الألعابِ ، إلا ابنُها وحدَهُ !!

" ذات الرداء الأحمر " تقول شيئًا جديدًا

عندما دخلتْ ذاتُ الرداءِ الأحمرِ بيتَ جدَّتِها ، كانَ الضوءُ خافتًا ، فلم تكتشفْ أن النائمَ فى الفراشِ هو الذئبُ ، بعدَ أن " ابتلع " الجدةَ . وتسمعُ الفتاةُ سؤالاً : " لماذا تأخَّرْتِ ؟ "

فتُجيبُ : "قابلْتُ رجلًا!"

!" ثم تصحّحُ ما قالَتْ : " أقصدُ قابلْتُ ذئبًا .. مَنْ قالَ إن الذئبَ شريرٌ ؟! لقد سمعْتُ منه أحلى الكلامِ ، بل رقصْتُ معه أيضًا . "



هنا يقولُ الذئبُ ، الذى تظنُّ الفتاةُ أنه جدتُها : " كنْتُ أنتظرُكِ لتجلسى بجوارى على الفراشِ ، لأحسَّ بالدفء . "

وبعد أن تجلسَ تسألُ :

" لماذا أرى يديْكِ كبيرتَيْنِ ؟ "

فيطوِّقُها بذراعِهِ ويقولُ : " لكى أحتضنَكِ بهما . "

وعندما تسألُ : " ولماذا أسنانُكِ كبيرةٌ ؟ "

تكونُ الإجابةُ أن يُخفِيَها الذئبُ معه تحتَ الغطاءِ وهو يبتلعُها !!



ولما جاءَ الأبُ في الوقتِ المناسبِ ، وأخرجَ الفتاةَ وجدَّتَها أحياءً من بطنِ الذئبِ ، تقولُ الجدةُ لحفيدتِها : " هذا هو الذئبُ اللطيفُ ، الذي لا يشغلُهُ إلا أن يبتلعَ السيداتِ ، ويخدعَ الفتياتِ الصغيراتِ " .

عندئذٍ قالَتْ إحدى المُشاهداتِ للعرضِ المسرحيِّ : " الآنَ فهِمْتُ معنى " الابتلاعِ " الذي تحكي عنه القصةُ . إنها ليسَتْ حكايةً لِصغارِ الأطفالِ كما كُنْتُ أظنُّ ، لهذا قالوا لنا إن هذا العرضَ المسرحِيَّ مُوجَّهٌ فقط للسنِّ التي أكبرُ من ٩ سنواتٍ . "

وكانَتْ تقصدُ العرضَ الذي قدمَهُ " فريقُ مسرحِ الطفلِ المصرِيِّ السويسرِيِّ " ، على مسرحِ قصرِ ثقافةِ الطفلِ بالقاهرة .

أخاف أن أفقد أختى

التحقَتْ أختى هذا العامَ بكليةِ الطبِّ ، وتركَتْنى فى السنةِ الأولى الثانويةِ ، بالمدرسةِ التى قضَيْنا فيها سنواتِ دراستِنا منذُ السنةِ الأولى الإعداديةِ . لم نكنْ نفترقُ أبدًا ، حتى عندما تركَتْنى فى مدرستِنا الابتدائيةِ ، إلى أن لحقْتُ بها فى المدرسةِ التى قضَيْنا فيها المرحلةَ الإعداديةَ ، وأبدأ فيها الآنَ المرحلةَ الثانويةَ .

أمَّا الآنَ ، فأشعرُ أن أختى تبتعدُ عنِّى . لم نعدْ نُرافِقُ بعضنا فى الطريقِ صباحًا أو بعدَ الظهرِ ، ومواعيدُ محاضراتِها تجعلُنى لا أكادُ أراها فى البيتِ ، وزميلاتُها فى الكليةِ يشغلْنَ بقيةَ وقتِها فى تبادلِ كراساتِ المحاضراتِ أو فى التليفون .

أشعرُ أننى أفقدُ أختى يومًا بعدَ يومٍ .

وإلى صاحبةِ هذه الرسالةِ ، أقولُ إنه من الطبيعىِّ أن تجدَ أختُكِ صداقاتٍ جديدةً بالجامعةِ ، لكنْ ليسَ معنى هذا حدوثَ أىِّ تغييرٍ فى مشاعرِها نحوَكِ . والتحاقُها قبلَكِ بالجامعةِ ، سيساعدُكِ على أن تعرفى مقدَّمًا ما الذى ينتظرُكِ عندما تنتقلين إلى مرحلةِ الدراسةِ بالجامعةِ .

وأقترحُ عليكِ أن تحاولى مناقشةَ مخاوفِكِ مع أختِكِ . اختارى وقتًا يسمحُ بأن تنفردى فيه بالحديثِ معَها ، وقولى لها إنكِ تخافينَ أن تفقديها . وأنا واثقٌ أنكِ ستكتشفينَ أنه من الممكنِ أن تظلَّ صداقتُكما كما هى ، مهما تقدَّمَ بكما العمرُ .